الفصل الأول

الوحـــى . .

- تعريف الوحى وأنواعه ..
- إمكانه . . ووقوعه ..
- المعجزة . . وتعريفها ..
- دفع الشبهات حول وقوع الوحى وحول المعجزات المؤيدة له .

الوحـــى

● **تعريف الوحى :**

أصل الوحى فى اللغة : الإعلام فى خفاء ، ومن هنا كان له فى لسان العرب إطلاقات متعددة ، كلها يدور حول هذا المعنى العام : فيطلق على الإلهام ، والإشارة ، والكتابة ، والرسالة ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك[١] .

وفى إطار هذا المعنى اللغوى الشامل لكل هذه الإطلاقات ، ورد الوحى فى أسلوب القرآن الكريم بمعنى الإلهام وذلك فى قوله تعالى : « **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا** »[٢] .

وورد بمعنى الاشارة فى قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام : « **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** »[٣] .

وورد بمعنى الوسوسة فى قوله سبحانه : « **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم** »[٤] .

وورد بمعنى إلقاء الله بما يريد إلقاءه للملائكة ، كما فى قوله : « **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا** »[٥] .

وورد بمعنى إلقاء الله بالقرآن لنبيه محمد ﷺ ، كما فى قوله مخاطبا له : « **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها** »[٦]

وورد بمعنى الموحى به كما فى قوله تعالى عن القرآن الكريم : « **إن هو إلاّ وحى يوحى** »[٧] .

أما الوحى بالمعنى الشرعى : فتارة يعرفونه بأنه « كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه » . وتارة أخرى يعرفونه بأنه « إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه »[٨] وظاهر أن التعريف الأول تعريف للوحى بمعنى الموحى به ، وأن التعريف الثانى تعريف للوحى بمعنى الإيحاء .

---

(١) انظر لسان العرب فى مادة (وحى) .
(٢) النحل : ٦٨ ، ٦٩
(٣) مريم : ١١
(٤) الأنعام : ١٢١
(٥) الأنفال : ١٢
(٦) الشورى : ٧
(٧) النجم : ٤
(٨) انظر رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٨٣ وهامشها .

وظاهر أيضا أن الوحى بالمعنى الشرعى لا يخرج عن نطاق المعنى اللغوى ، والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص ، فالوحى بالمعنى اللغوى عام يشمل كل إعلام فى خفاء ، والوحى بالمعنى الشرعى خاص لا يتناول إلّا ما كان من الله لنبى من الأنبياء .

* * *

● **أنواع الوحى :**

والوحى أنواع مختلفة :

١ ـ فمنه ما يكون مناما ، وذلك بأن يرى النبى ﷺ رؤيا فى منامه ، فتتحقق بعد فى اليقظة كما رآها فى نومه تماما ، ومما يشهد لهذا ما رواه البخارى فى باب بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء . . » إلى أن قالت : « **حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجأه الملك فقال : إقرأ . .** » إلى آخر الحديث .

وظاهر أن الحديث صريح فى أن هذا النوع من الوحى وقع للنبى محمد ﷺ ـ كما وقع لغيره من الأنبياء ـ قبل البعثة ، ولعل السر فى هذا هو تهيئة النبى ﷺ لأعباء الرسالة ، وإعداده لتلقى الوحى فى اليقظة ، ولقد يدل على ذلك حديث علقمة بن قيس صاحب عبد الله بن مسعود ، قال : « إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحى بعد فى اليقظة »[٩] .

وليس فى حديث بدء الوحى ما يدل على عدم وقوع الوحى مناماً بعد البعثة ، بل لقد وقع ذلك بالفعل على سبيل البشرى من الله لنبيه بتحقق أمل تشوّقت له نفسه ، وتعلق به قلبه ، كما حدث أن رأى فى منامه أنه دخل هو وأصحابه مكة معتمرين ، محلقين رؤوسهم ومقصرين ، ثم تحققت هذه الرؤيا بعد فى اليقظة ، فدخلوا مكة بعد عام من صلح الحديبية معتمرين على هذا النحو الذى أراه الله فى منامه ، ونزل القرآن يحكى هذه الرؤيا وصدقها بقوله : « **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلّن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون** »[١٠] .

٢ ـ ومنه ما يكون إلهاما يلقيه الله فى قلب نبيه ، فيجد من نفسه عليها ضروريا

---

(٩) ذكره ابن حجر فى فتح البارى جـ١ ص ١٠ وقال : رواه أبونعيم فى الدلائل باسناد حسن .

(١٠) الآية : ٢٧

بأن هذا من عند الله تعالى ، ولعل هذا هو المقصود بالنفث فى الروع الوارد فى حديث رسول الله ﷺ : « **إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب** »[١١] .

٣ - ومنه ما يكون تكليما من الله لنبيه بكلام يسمعه ويدرك معناه ، مع يقينه بأنه كلام الله وليس كلام أحد سواه ، كما كلم الله موسى لما ذهب لميقات ربه الذى ضرب له أجلا أربعين ليلة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى** »[١٢] ويقول فى آية أخرى : « **وكلم موسى تكليما** »[١٣] .

٤ - ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحى جبريل عليه السلام ، وهذا أغلب أنواع الوحى لرسولنا محمد ﷺ ولغيره من الرسل ، والقرآن كله من هذا القبيل، ولم نعرف أن شيئا منه نزل على الرسول ﷺ مناما أو إلهاما أو تكليما من الله بغير واسطة ، وكل ما عرفناه من ذلك : هو أن رسول الله ﷺ كان - أحيانا - يرى فى منامه رؤيا فينزل بعدها قرآن يصدقها ، كما ذكرناه آنفا فى رؤيا دخوله مكة ، وكما ورد أنه عليه الصلاة والسلام أغفى إغفاءة رأى فيها نهر الكوثر الذى أعدّه الله له فى الجنة ، ولما استيقظ نزل عليه قوله تعالى : « **إنا أعطيناك الكوثر** . . »[١٤] الى آخر السورة ، وقول البعض انها نزلت منامة غير صحيح[١٥] .

ومما يشهد لنزول القرآن كله بواسطة جبريل ، قوله تعالى فى صفة القرآن الكريم : « **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين** * »[١٦] ، وقوله مخاطبا نبيه محمدا ﷺ : « **قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين** »[١٧] .

* * *

---

(١١) قال ابن حجر فى فتح البارى جـ١ ص ٢٢ : أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة ، وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود .

(١٢) الأعراف : ١٤٣

(١٣) النساء : ١٦٤

(١٤) الكوثر : ١

(١٥) انظر شرح القسطلانى على صحيح البخارى جـ١ ص ٦١ ط : الأميرية ، وانظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى (النوع الخامس : الفراشى والنومى) جـ١ ص ٢٢ - ٢٣ ط : الحلبى .

(١٦) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥

(١٧) النحل : ١٠٢

● **كيف كان يتلقى جبريل الوحى عن الله ؟ وكيف كان يتلقاه النبى ﷺ عن جبريل ؟**

أما كيف كان يتلقى جبريل الوحى عن الله ؟ فقد قيل : إنه كان يؤمر من قبل الله تعالى بحفظه من اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شىء . وقيل ـ وهو الراجح ـ إنه كان يتلقفه من الله تلقفا روحانيا لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبى ﷺ ، ومما يشهد لهذا القول الأخير ما رواه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا الى النبى ﷺ قال : « إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة ـ أى رعدة ـ شديدة من خوف الله تعالى ، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخرّوا سجّدا ، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فينتهى به إلى الملائكة ، كلما مرّ بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهى به حيث أمره الله من السماء والأرض »[١٨] .

ومهما يكن من شىء يقال فى هذا الصدد ، فالأمر غيب من غيب الله ، ولسنا مكلفين بمعرفة ما غاب عنا من ذلك ، والجهل به لا يضر ، كما أن العلم به لا ينفع .

وأما كيف كان النبى ﷺ يتلقى الوحى عن جبريل ؟ فقد كان ذلك يجرى على طريقتين :

الأولى : أن النبى ﷺ كان ينخلع عن حاله البشرية إلى الحال الملكية ، وذلك بغلبة روحانيته ، حتى يزول التنافر ، ويحصل التلاؤم الذى لابد منه بين المتكلم والسامع ، وفى هذه الحالة ، إما أن يأتى جبريل النبى ﷺ بالوحى وهو على صورته الملكية فيكلمه وهو يعى عنه ما يقول ، كما حدث ذلك فى نزوله عليه أول مرة فى غار حراء بقوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » . . . . إلى قوله : « **علم الإنسان ما لم يعلم** »[١٩] .

وإما أن يأتيه مستترا ، لا يراه النبى ولا غيره ، ولكن يسمع النبى صوتا أشبه ما يكون بصوت الجرس فى شدته وتتابعه ، وقد يسمع الحاضرون حول وجه النبى صلى الله عليه وسلم دوياً كدوىّ النحل ، والنبى ـ دون غيره من الحاضرين ـ يعى ويفهم ما يسمع ، وقد وقع ذلك له مراراً ، ووردت به أحاديث عديدة .

الثانية : أن النبى ﷺ يبقى على حاله البشرية ، وجبريل هو الذى ينخلع من الصورة الملكية الى الصورة البشرية ، فينزل على النبى ﷺ فى صورة إنسان يراه

(١٨) شرح القسطلانى على صحيح البخارى جـ١ ص ٥٨ ط : الأميرية .
(١٩) العلق : ١ ـ ٥

ويراه أصحابه ، ويكلمه كلاما معتادا لا يخرج عن كلام الناس فيما بينهم ، والرسول ﷺ والصحابة يسمعون ذلك الكلام ويفهمونه ، إلا أن النبى ﷺ يدرك من أول وهلة أنه جبريل ، والصحابة لا يدركون ذلك إلا بعد تنبيه الرسول ﷺ لهم ، وقد وقع ذلك مرارا وجاءت به أحاديث ، منها : حديث عمر رضى الله عنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منّا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام . . . . . » الحديث ، وفى آخره أن الرسول ﷺ قال لعمر : أتدرى من السائل ؟ فقال عمر : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : فإنه جبريل جاء يعلمكم دينكم (٢٠) .

ومما هو معروف عقلا ونقلا أن الحالة الأولى أشد الحالتين على رسول الله ﷺ : أما من ناحية العقل ، فإن انخلاع النبى ﷺ عن حالة البشرية إلى الحال الملكية ليس بالأمر السهل ، لأنه خروج عن طبيعته التى خلقه الله عليها ، ثم إن الفهم من كلام يشبه صلصلة الجرس ليس سهلا كالفهم من الكلام الذى ألفه الناس عند تخاطبهم .

وأما من ناحية النقل فقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها : أن الحارث ابن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله . . كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علىّ - فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقا . (٢١)

قال الحافظ ابن حجر فى تعليل قوله فى الحديث « وهو أشده علىّ » : « لأن لفهم من كلام مثل الصلصلة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود ، والحكمة فيه أن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع ، وهى هنا

---

(٢٠) رواه مسلم فى كتاب الايمان .

(٢١) رواه البخارى فى باب بدء الوحى . ومما يشهد لشدة الوحى فى الحالة الأولى أيضا ما رواه الامام أحمد عن عبدالله بن عمر قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم : هل تحس بالوحى ؟ فقال : « أسمع صلاصل ، ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى الى الا ظننت أن نفسى تقبض » الاتقان جـ١ ص ٤٤ .

إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية ، وهو النوع الأول ، وإما باتصاف القائل بوصف السامع ، وهو البشرية ، وهو النوع الثانى »[٢٢] .

. . . . . وبعد ، فمما يجب أن يعلم : أن الوحى بالنسبة للأنبياء جميعا واحد لا يختلف فى شىء مطلقا ، فهو واحد فى حقيقته ، واحد فى مصدره ، واحد فى هدفه ومقصده ، مصداق ذلك قوله تعالى : « **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما** »[٢٣] .

ومما يجب أن يعلم أيضا : أن الوحى لكل الأنبياء لا يخرج عن أنواعه التى ذكرناها والتى جمعها الله فى قوله : « **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىّ حكيم** »[٢٤]

* * *

(٢٢) فتح البارى جـ١ ص ٢٣ .

(٢٣) النساء : ١٦٣ ، ١٦٤

(٢٤) يقول بعض العلماء إن كلام الله لموسى من غير واسطة كان خصوصية له ولم يشاركه فيها أحد من الأنبياء ، ورد عليه بأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم كلمه ربه ليلة المعراج من غير واسطة . أما كيفية هذا الكلام فغيب لا نعرفه ، وكل ما يلزمنا معرفته : أنه ليس ككلامنا : من حروف وأصوات ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . والآية من سورة الشورى : ٥١

إمكان الوحى ووقوعه

الناس أمام إمكان الوحى ووقوعه بالفعل طوائف ثلاث :

الطائفة الأولى : أصحاب الديانات السماوية الذين آمنوا بها ، وأذعنوا لها ، وهؤلاء مؤمنون بالوحى وإمكانه ووقوعه ، لأن ذلك الإيمان منهم نتيجة حتمية لإيمانهم برسلهم ، وتصديقهم لهم فى كل ما يبلغون به عن الله ، إذ الوحى - فى أى صورة من صوره - هو الوسيلة الوحيدة لتلقى الرسالات عن الله سبحانه .

هذه الطائفة لا كلام لنا معها فى إمكان الوحى ووقوعه ، لأنها متفقة معنا فى هذه القضية ، فإن كان هناك بعد ذلك إنكار من بعض أتباع الرسالات لرسالة ما غير رسالتهم ، فذلك ليس إنكاراً لإمكان الوحى فى ذاته ولا لوقوعه ، وإنما هو إنكار لأن يكون فلان (من الأنبياء) نبياً يوحى إليه من قبل الله ، وذلك يحتاج إلى إقامة الدليل على نبوته ، واثبات النبوة لنبىّ ما ، شىء خارج عن موضوعنا الذى نتكلم فيه .

الطائفة الثانية : جماعة من الفلاسفة الغربيين (فى الفترة من أوائل القرن السادس عشر الى قريب من منتصف القرن التاسع عشر) ذهبوا - بدافع من المادية المشككة فى كل ما سواها - « إلى أن مسألة الوحى من بقايا الخرافات القديمة ، وتغالت حتى أنكرت الخالق والروح معا ، وعللت ما ورد من الوحى فى الكتب القديمة بأنه : إما اختلاق من المنبئة أنفسهم ، لجذب الناس اليهم وتسخيرهم لمشيئتهم ، واما هذيان مرضى يعترى بعض العصبيين فيخيل اليهم أنهم يرون أشباحا تكلمهم ، وهم لا يرون فى الواقع شيئا »[٢٥] .

وظاهر أن هذه الطائفة تنكر الوحى لأنها تنكر وجود الله ووجود الروح ، فهى تحتاج الى اثبات كلا الأمرين أولا ، ثم نرد عليها بعد ذلك دعوى اختلاق الأنبياء أو هذيانهم ، فنقول :

أما عن وجود الله - سبحانه - فالأدلة عليه قائمة ، نقرؤها فى كتاب الكون المفتوح دائما أمام أبصارنا وبصائرنا ، ونقرؤها بعد منطقا سليما فيما قرره علماء الكلام فى مباحث الألوهية .

---

(٢٥) دائرة معارف وجدى فى مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٢ - ٧١٣ .

وأما عن وجود الروح ، فقد ثبت ذلك ثبوتا علميا تجريبيا لا شك فيه ، كما سترى ذلك بعد قليل وعند الكلام عن الطائفة الثالثة .

وإذاً فلا يبقى بعد ذلك إلا اقناع هؤلاء بإمكان اتصال الروح ـ وهو الملك ـ بالنبى الموحى اليه ليبلغه عن الله ما يريد ، وهذا ما سنبرهن عليه عند الكلام عن الطائفة الثالثة .

أما قولهم : ان دعوى الوحى اختلاق من المتنبئة ، أو هذيان مرضى يعترى بعض العصبيين فيخيل اليهم أنهم يرون أشباحا تكلمهم وهم لا يرون فى الواقع شيئا ، فذلك اتهام قديم ، رمى به المكابرون المعاندون رسلهم من قبل ، وهو اتهام باطل من أساسه ، فالمعجزات التى أظهرها الله على أيدى رسله ، واقترنت بالتحدى ، وانتهت الى العجز التام عن معارضتها بمثلها ، دليل صدقهم فى كل ما يبلغون به عن الله . وما عرف من سيرة الأنبياء من أنهم جميعا كانوا بين أقوامهم فى الذروة عقلا وكمالا ، وأن الله أصلح بهم أمما كانت فى الذروة انحرافا وضلالا ، يدل ـ بيقين ـ على أنهم كانوا أبعد الناس عن الهذيان والخبال . وسوف نعرض لهذه النقطة بمزيد من الايضاح عند الكلام عن المعجزة .

الطائفة الثالثة : جماعة من العلماء والفلاسفة الغربيين ظهرت فى منتصف القرن التاسع عشر ، آمنت بالأرواح وبما لها من قدرات وتصرفات فوق ما نتصور ، وبأن هذه الأرواح يمكن استحضارها ، والتحدث اليها ، وتسخيرها فى بعض الأمور ، حتى انها لتسئل عن الخفيات فتظهرها ، وعن بعض المغيبات فتكشف عنها ، ويذكر المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى فى دائرة المعارف ـ بعد ما تحدث عن ظهور هذه الطائفة المؤمنة ايمانا مطلقا بعالم الأرواح ، والتى بعثت فى قضية الوحى ـ كما يقول ـ الحياة بعد أن كانت فى عداد الأضاليل القديمة ـ يذكر أن لفيفا من أساتذة الجامعات فى الدول الغربية ألفّوا فى سنة ١٨٨٢ جمعية دعيت باسم « جمعية المباحث النفسية » كان الغرض منها : « البت فى المسألة الروحية ، وتحقيق حوادثها بأسلوب النقد الصارم ، والحكم بقبولها نهائيا فى العلم إن كانت حقيقة ، أو تقرير ابعادها عن العلم والفلسفة إن كانت من الأمور الوهمية »[٢٦] .

ويذكر ـ بعد ذلك ـ : « ان هذه الجمعية مكثت نحو ثلاثين سنة ، حققت فى خلالها ألوفا من الحوادث الروحية ، وعملت من التجارب فى النفس وقواها

---

(٢٦) دائرة المعارف لمحمد فريد وجدى مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٣

ما لا يكاد يدرك لولا أنه مدون فى محاضر تلك الجمعية فى نحو أربعين مجلدا ضخما ، فكان من ثمرات جهادها اثبات شخصية ثانية للانسان ، أى أننا أحياء مدركون فى حياتنا الحاضرة لا بكل قوى الروح التى فينا ، بل بجزء من تلك القوى ، سمحت لنا به حواسنا الخمس القاصرة ، ولكن لنا فوق ما تعطيه لنا حواسنا هذه حياة أرقى من هذه الحياة ، لا تظهر بشيء من جلالها إلا اذا تعطلت فينا هذه الشخصية العادية بالنوم العادى ، أو النوم الصناعى (المغناطيسى) وقد جربوا ذلك على المنوَّمين نوماً مغناطيسيا ، فوجدوا : أن النائم يظهر بمظهر من الحياة الروحية لا يكون له وهو يقظان : فيعلم الغيب ، ويخبر عن البعيدين ، ويبصر ويسمع ، ويحس بغير حواسه الجسمية ، ويكون ـ وهو فى تلك الحالة ـ على جانب كبير من التعقل والادراك . قالوا : « وتكون هذه حالة الانسان فى نومه العادى ، والدليل على ذلك ما يأتيه المصابون بمرض الانتقال النومى من الأفعال المعجزة والمدارك السامية »[٢٧] .

قالوا : « وهذه الشخصية الباطنة أصبحت مدركة بالحسّ ، فان ظهور النائم نوما مغناطيسيا بهذا المظهر من العقل الراجح ، والفكر الثاقب ، والنظر البعيد ، وسريانه فى سرائر النفوس ، واكتشافه لخفايا الأمور ، وجولاته فى الأقطار البعيدة ، بينما يكون جاهلا غبيا فى حالته العادية ، أدلّ دليل على أن للانسان شخصية تحجبها هذه الحياة الجسدية ، ولا تظهر الا اذا وقع جسمه فى نوم طبيعى أو صناعى . ثم إن الرؤى الصحيحة التى تقع كفلق الصبح ، ويدرك بها الانسان أمورا غيبية ، أو يحل فيها مسائل عويصة لم يحلها وهو صاح ، أو انتقاله وهو نائم واتيانه أعمالا لا يستطيع عملها وهو يقظ ، يدل كذلك على أن له شخصية باطنة أرقى من شخصيته العادية »[٢٨] .

ثم ذكر الأستاذ محمد فريد وجدى بعد ذلك : أن هناك أمورا تدل بالحس على وجود تلك الشخصية.درستها تلك الجمعية درسا مدققا ، وحققت تجارب من درسها قبلها . . وذكر من أمثلة ذلك عبقرية الحاسبين على البديهة لأعوص المسائل الرياضية التى تحتاج الى زمن كبير فى التفكير والعمل ، فيجيبون عليها على الفور وهم لا يدركون كيف وجد هذا الحل فى نفوسهم ، وحديث أحد الشعراء الغربيين عن نفسه : أنه كان ينام ـ غالبا ـ وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة فى اليوم التالى عندما يفكر فيها . . وذكر غير ذلك

---

(٢٧) دائرة المعارف لمحمد فريد وجدى ـ مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٤ .

(٢٨) المرجع السابق جـ١٠ ص ٧١٤ ـ ٧١٥ .

من الوقائع المشابهة التى لا تصدر إلا عن الشخصية الباطنية الملهمة .

غير أن هؤلاء الذين آمنوا بوجود الروح وخلودها وما لها من قوة الادراك والالهام والتأثير ، لا يرون : « أن الوحى يكون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاما عن الله ، بل يكون فى تجلّى روح الانسان عليه بواسطة شخصيته الباطنية ، فتعلمه ما لم يكن يعلم ، وتهديه الى خير الطرق لهداية نفسه ، وترقية أمته »(٢٩) .

وخلاصة ما انتهت اليه هذه الطائفة الثالثة هو :

١ - أنهم يؤمنون بوجود الأرواح . . . وهذا نسلم به ولا ننكره .

٢ - وأنهم يؤمنون بأن لها ادراكا واسعا ، وقدرة فائقة ، وتأثيرا بليغا . . وهذا - أيضاً - نسلم به ولا ننكره(٣٠) .

٣ - وأن هذه الروح هى التى تنفث فى روع الأنبياء ما يعتبرونه وحيا من الله ، وأنها قد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة الله التى تهبط عليهم من السماء . . . . وهذا ما لا نوافقهم عليه ، ولا نسلم لهم به .

ذلك لأنهم عللوا انكارهم للوحى بطريق الملك : « بأن الله منزه عن المكان ، وأن الملائكة - مهما قيل فى روحانيتهم وتجردهم عن المادة - لا يعقل أنهم يقابلون الله ويسمعون منه كلاما ، لأن هذا كله يقتضى التحيز وعدم التنزيه المطلق ، ولأن الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلا من الروح الانسانى التى هى من روح الله نفسه ، فمثلهم ومثلها سواء »(٣١) .

وهذا وهم باطل ، فالله - حقا - منزه عن المكان كما يقولون . والملائكة - حقا - لا يقابلون الله كما يقولون ، ونحن حين نقول : بأن الوحى يكون عن طريق الملك ، لا ندعى أن الملك يقابل الله سبحانه ، لأن هذا يستدعى أن يكون الله - جل شأنه - فى مكان ، وهذا يقتضى التحيز الذى لا يقول به مؤمن بالله وصفاته .

وكل ما نقوله هو : أن الملك - بدون مقابلة ولا مواجهة - يتلقى الوحى عن الله - تعالى - تلقيا روحانيا لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبى ﷺ فيبلغه اليه على صورة من الصور التى ذكرنا من قبل ، وهذا كله اتصال روحى لا ينكره من يؤمن بعالم الروح .

---

(٢٩) دائرة معارف وجدى مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٩

(٣٠) وان كنت لا أزال فى شك من أن الانسان يستطيع أن يسيطر على الروح ويسخرها فى أغراضه وحاجاته ، وبخاصة الأرواح العالية كأرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٣١) دائرة معارف وجدى - مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٩ - ٧٢٠ .

وأما قولهم : « ان الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلا من الروح الانسانى التى هى من روح الله نفسه ، فمثلهم ومثلها سواء » . . . . يريدون من وراء ذلك أن يقولوا : ان الملائكة ليسوا أهلا لأن يكونوا أو يكون أحدهم وسيطا بين الله والأنبياء ، لأن روحانية الملائكة دون روحانية الأنبياء التى هى من روح الله ، قولهم هذا لا نسلمه لهم أيضا ، لأن دعوى أن الروح الانسانى من روح الله ، وأنها فى ذلك سواء ، دعوى تستلزم الجزئية ان أرادوا أنها بعض منها ، وتستلزم المشابهة ان أرادوا أنها من جنسها ، وهذا لا يتفق مع ما ثبت بالأدلة القاطعة من وحدانية الله فى ذاته وصفاته « **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد** » .

نعم ، ان الروح الانسانى من روح الله ، على معنى أنها من روحه التى خلقها وأودعها كل كائن حىّ ، وعلى هذا نفهم قول الله عزل وجل فى شأن آدم عليه السلام : « **فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** »[٣٢] .

وعلى هذا المعنى ، فالروح الانسانى ـ ومنها أرواح الأنبياء ـ والروح الملائكى ـ ومنها روح جبريل حامل الوحى ـ سواء ، اذ الكل من خلق الله عز وجل .

على أن روح الملائكة ـ قطعا ـ أعلا وأشف من روح الأنبياء ، لأن الملائكة أرواح مجردة عن المادة ، والأنبياء بشر من جسم وروح ، والروح المجردة أقوى ـ بلا شك ـ من الروح التى تلابس الجسم وتخالطه .

نعم ، قد يكون مقام الأنبياء عند الله أفضل من مقام الملائكة ، وذلك لا يرجع الى تفاضل بينهما فى الأرواح ، وانما يرجع الى شىء آخر وراء ذلك .

* * *

● **دليل إمكان الوحـى :**

. . . . . مما تقدم يتبين لنا : أن الوحى للأنبياء بواسطة الملك ـ وهو جبريل عليه السلام ـ ليس بالأمر المستحيل ، لأنه لا يعدو أن يكون اتصالا بين الله والملك اتصالا روحانيا ، ثم بين الملك والنبى اتصالا روحانيا أيضا ، واتصال بعض الأرواح ببعضها الآخر ، وتأثير الأقوى منها فى الأدنى أصبح ـ وعلى الأخص عند الباحثين فى الروح ـ أمرا مسلما ، لا ينكره إلا من سفه نفسه ،

---

(٣٢) الحجر : ٢٩

وأنكر عقله ، وأغمض بصره عما أجرى ولا يزال يجرى من تجارب تنتهى حتما - إذا أخذت طريقها الصحيح - الى هذه الحقيقة التى نقول بها ، وهى أن الوحى أمر ممكن وغير مستحيل .

ولقد انتهى العالم النفسى الدكتور « ميرس » الذى كان يعمل أستاذا لعلم النفس فى جامعة كمبردج فى كتابه « الشخصية الانسانية » بعد ما تناول فى كتابه هذا موضوع العبقرية ، والوحى ، والشخصية الباطنية ، وذكر من عجائب الالهام طرائف كثيرة . . انتهى الى التسليم بأن الوحى حقيقة ممكنة ، فقال : « أنا أؤكد إذن وجود روح فى الانسان تستمد قوتها وجمالها من عالم روحانى ، وأؤكد - أيضا - وجود روح عامة فى العالم يمكن أن تتصل بها الروح الانسانية ولها بها علاقة »(٣٣) .

ويبدو أنه لا يريد من الروح العامة الا الله سبحانه ، والروح الانسانية يمكن أن تتصل به بطريق ما . . . بواسطة أو بغير واسطة ، وهذا ما يقوله ويؤكده علماء المسلمين .

* * *

● **دليل وقوع الوحى فعلا للأنبياء :**

بقى بعد ذلك أن نقيم الدليل على أن الوحى وقع فعلا للأنبياء فنقول : ان الدليل على وقوع الوحى للأنبياء بالفعل دليل منطقى سليم ، وهو : أن الوحى ممكن أخبر بوقوعه الصادق المعصوم - وهو الرسول ، أى رسول كان - وكل ممكن أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو واقع فعلا ويقينا ، اذن فالوحى واقع فعلا ويقينا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

هذا دليل منطقى ، يجرى على أسلوب من أساليب المناطقة فى استدلالهم وهو لا يحتاج فى صدق نتيجته التى قررناها إلا الى صدق مقدماته التى بنينا عليها هذه النتيجة ، وهى كلها صادقة كما نوضحه .

أما أن الوحى ممكن ، فذلك ما أقمنا عليه الدليل آنفا .

وأما أنه أخبر بوقوعه الصادق المعصوم ، فذلك - أى الإخبار - أمر مسلم لا ينكره أحد ممن عاصروا الأنبياء وسمعوا منهم أنهم أنبياء يوحى اليهم ، ولا ينكره من جاءوا بعد عصر النبوة لثبوته بالتواتر الذى توارثه جيل عن جيل ، فضلا عن وروده فى الكتب المقدسة التى لا يرقى اليها الشك .

وأما أن المخبر بالوقوع - وهو الرسول - صادق معصوم ، فذلك ثابت بيقين ، لأنه ما من رسول بعثه الله فى أمة من الأمم الا وكان له من قومه

---

(٣٣) دائرة معارف وجدى مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٩

مكذبون ، وما كان الله ليذر أنبياءه يواجهون هذا التكذيب بغير حجة دامغة ، فأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم وعصمتهم من الكذب ، والتى تقوم ـ كما يقول علماء الكلام ـ مقام قول الله عزّ وجل : « صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى » .

وأما أن كل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ، فذلك أمر بدهى وحتمىّ ، لأن ذلك هو قضية العصمة التى ثبتت للأنبياء بظهور المعجزات على أيديهم .

* * *

● **المعجـزة :**

واذا كان الدليل على وقوع الوحى قد ساقنا الى ذكر المعجزة ، فان من الواجب علينا ـ اتماما للفائدة ، وتوضيحا لبعض قضايا الدليل ـ أن نعرض للكلام عن المعجزة من بعض جوانبها المتعددة فنقول :

تعريفها : المعجزة ـ فى أصل معناها اللغوى ـ مشتقة من العجز ، وهو عدم القدرة على أمر من الأمور .

ويطلقها علماء الشريعة على الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله تعالى على يد نبى مرسل ، لتقوم دليلا على صدق دعوته ، وبرهانا على حقيّة رسالته .

ولقد جرت سنّة الله ـ سبحانه ـ أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة خارقة للعادة ، وخارجة عن حدود المألوف للناس ، حتى يحمل المعاندين المكابرين على الايمان بهم ، والاذعان لهم ، والتسليم بكل ما جاءوا به من هداية وارشاد .

كان النبى يبعث فى قومه فيصدع بالدعوة الى الله ، فيستجيب له من شرح الله صدره لدعوته ، ويكذب به من جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا صيحة السماء التى تنادى عليهم : أن هبّوا من رقدتكم ، وأفيقوا من غفلتكم ، وتحرروا من قيود شهواتكم وأهوائكم . . .

ويتمادى المكذبون فى المكابرة والعناد ، فاذا بهم يرمون أنبياءهم ـ بعد الكذب ـ بالسحر تارة ، وبالجنون أخرى : فيقول المكذبون لنوح عليه السلام : « **ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** »[٣٤] .

---

(٣٤) هود : ٢٧

ويقولون هود عليه السلام : « **يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** »[٣٥] .

ويقولون لصالح عليه السلام : « **إنما أنت من المسحّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين** »[٣٦]

ويقولون عن موسى وهارون : « **إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** »[٣٧] .

ويقولون عن محمد ﷺ : « **معلم مجنون** »[٣٨] . ويقولون عنه أيضا : « **أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** »[٣٩] .

قالوا كل هذا وأكثر منه فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وطالبوهم بالآيات الدالات على صدق رسالاتهم ، فلما كان من الأنبياء إلا أن لجأوا الى الله سبحانه ، يطلبون منه أن يؤيدهم بالآيات من عنده ، فاستجاب لهم ربهم ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما يشهد بصدق دعوتهم ، وتحدى الأنبياء أقوامهم أن يأتوا بمثل ما أتى الله به على أيديهم من خوارق العادات ، فعجزوا كل العجز ، وكان نتيجة ذلك أن امن بهم العقلاء ، واستمر متشبثا بالكفر الحمقى من الجهلاء والسفهاء !! . .

وشاءت حكمة الله ـ تعالى ـ أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما برع فيه قومه ، لتكون أبلغ فى التحدى ، وليكون العجز عن معارضتها أبلغ فى الدلالة على كونها آية من عند الله على صدق من ظهرت على يده من الأنبياء .

فمثلا : بعث الله موسى عليه السلام الى قوم برعوا فى السحر ، فأعطاه الله معجزة من هذا القبيل ولم تكن سحرا ، وانما كانت حقا أبطل الله به مخاريق سحرة فرعون .

ويصور القرآن الكريم لنا موقف التحدى الذى كان بين موسى والسحرة أبلغ تصوير بقوله : « **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذا لمن**

---

(٣٥) هود : ٥٣ ، ٥٤
(٣٦) الشعراء : ١٥٣ ، ١٥٤
(٣٧) طه : ٦٣
(٣٨) الدخان : ١٤
(٣٩) الصافات : ٣٦

المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون »[٤٠] .

وبعث الله عيسى الى قوم برعوا فى الطب ، فجاءهم على صدق دعواه بمعجزة من هذا القبيل ، ولكنها أبلغ مما يعرفون وفوق ما يتصورون ، فقد كان ـ عليه السلام ـ يبرىء الأكمه[٤١] والأبرص باذن الله ، وما عرف الطب لشيء من ذلك علاجا ، وكان يحيى الموتى باذن الله ، وما عرفنا ولن نعرف يوما أن طبيبا يمكنه اعادة الحياة لإنسان بعد موت محقق[٤٢] .

ويصرح القرآن بمعجزة عيسى ـ عليه السلام ـ فيقول عنه : « **ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** »[٤٣] .

وبعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام بمعجزة القرآن الكريم ـ وهى كبرى معجزاته ـ من نوع ما برع فيه قومه وهم العرب ، وتحداهم به فعجزوا أن يعارضوه حتى فى أقصر سورة منه ، مع توفر دواعيهم لمعارضته ، وعدم المانع لهم منها فقد كانوا فرسان البلاغة وأمراء البيان ، وكان القرآن ـ وما زال ـ فوق متناول ألسنتهم وبيانهم ، وصدق الله العظيم : « **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »[٤٤] .

قلنا : ان معجزات الأنبياء كانت من نوع ما برع فيه أقوامهم الذين بعثوا فيهم لتكون أبلغ فى التحدى ، وليكون العجز عنها أبلغ فى كونها آية من عند الله على صدق نبواتهم ، ونوضح ذلك فنقول .

(٤٠) الشعراء : ٣٨ ـ ٤٨ (٤١) الاكمه : من ولد اعمى

(٤٢) وانما قلنا بعد موت محقق ، لأن بعض الصحف والمجلات كثيرا ما تنشر عن بعض الأطباء أنهم أعادوا الحياة لبعض من فارقوا الحياة بعد لحظات أو ساعات من وفاتهم ، وهذا وهم منهم . والحقيقة : أن المريض لم يمت ، وانما هبط قلبه ، واختفى نبضه بحيث لا يكاد يحس ، ويدخل المريض فى غيبوبة شديدة فيظن أنه مات ، ويأخذ الطبيب فى علاجه بتدليك القلب أو نحو ذلك ، فإذا بقلب المريض تظهر فيه الحركة ، واذا بنبضه يسمع بعد ما كان خفيا ، فيقول من يجهل ذلك : ان الطبيب أعاد الحياة لميت ، وربما يدعى الطبيب ذلك للاعلان عن نفسه .

(٤٣) آل عمران : ٤٩ (٤٤) الاسراء : ٨٨

ان كل رسول بعثه الله الى قومه ، وجدهم يقيمون على شرك تمكن من قلوبهم ، وعادات مرذولة تحكمت فى سلوكهم ، فسفّه أحلامهم ، وأبطل آلهتهم ، وعاب سلوكهم ، ودعاهم الى عبادة الله وحده ، ونبذ معتقداتهم الفاسدة وعاداتهم السيئة ، فوقفوا منه موقف المعادى الشرس ، فتصدى لهم بالحجة والمنطق فما استجابوا لدعوته ، فجاءهم بالمعجزة وتحداهم جميعا أن يأتوا بمثلها ان استطاعوا ، وإلا فليسلموا له بالنبوة ، فما كان منهم إلا محاولات ضاعت كلها هباء أمام معجزاتهم التى أيدهم الله بها ، وثبت عجزهم عن معارضتها وهم من عرفوا بالبراعة فى هذا الفن الذى تحداهم الرسول بلون منه عجيب ، وكان عجزهم هذا فى وقت توّفرت فيه الدواعى للمعارضة حتى يدفعوا البطلان عن آلهتهم ، ويدرءوا السفاهة والجهالة عن أنفسهم ، ويمكّنوا لعقائدهم وعاداتهم فى الأرض بعد أن أصبحت كلها فى مهب ريح الحق المدمرة للباطل .

ولا شك أنهم تداعوا لقبول هذا التحدى ، وتآزروا جميعا على أن يخرجوا من هذه المحنة ظافرين منتصرين ، فاذا محاولاتهم كلها غثاء كغثاء السيل أمام تيار الحق الإلهى الذى جرفها فذهبت بددا ، وضاعت سدى « **فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** »[٤٥] .

أليس معنى هذا العجز الجماعى لأمة من الأمم أمام تحدى فرد واحد منها ، مع عدم المانع من المعارضة وتوفر الدوافع اليها ـ كما قلنا ـ أكبر دليل على أنه صادق فى دعوى النبوة ؟

بلى ، انه لأكبر دليل على صدقه ، ولكن رغم ذلك تمادى المبطلون فى باطلهم ، وأخذوا يثيرون حول وقوع الوحى وحول المعجزات التى هى دلائل وقوعه للأنبياء شكوكا وأوهاما ليصلوا من وراء ذلك الى القول ببطلان الرسالات السماوية كلها ، ثم لعلهم يظفرون بعد ذلك بتشكيك مؤمن وفتنة مهتد !! . .

* * *

(٤٥) الرعد : ١٧

الشبهات التى أثيرت حول وقوع الوحى وحول المعجزات المؤيدة له ، وردها

نرى لزاما علينا أن نعرض لبعض هذه الشبه ، ثم نعقب على كل منها بما يكشف عن زيفها ، ويفصح عن بطلانها فنقول :

● **الشبهة الأولى** : قالوا مشككين فى امكان الوحى ووقوعه للأنبياء عليهم السلام : لو كان الوحى ممكنا لأوحى الله الى جميع البشر ولم يخص به نفرا قليلا منهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه ، لأن تعميم الوحى بحيث يشمل كل المكلفين أدعى الى تحقيق الغرض منه ، وهو هداية الناس الى الحق والى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة .

ثم هو بعد ذلك أنفى لتكذيب الأنبياء ورميهم بما يرمون به من الخداع والسحر والجنون . . وغير ذلك من التهم التى وجهت ولا زالت توجه اليهم من المنكرين عليهم دعوى الرسالة .

والجواب عن هذه الشبهة : أن هذا الذى يهذى به المشككون المضللون ، لا يصدر الا عن جهل بحكمة الله العلى الحكيم ، ثم عن جهل بطبائع الناس واختلاف ما لديهم من صلاحية واستعداد للاضطلاع بمهام الامور وعظائمها :

أما أنه صادر عن جهل بحكمة الله ، فذلك لأن الله جلت حكمته ـ أراد للناس أن يكونوا مختلفين ، لا أن يكونوا أمة واحدة ، تساق الى الحق سوقا ، وتحمل عليه حملا ، بالوحى لكل منهم أو بأى وسيلة ملجئة ، اذ الانسان مخلوق ميزه الله بالعقل ، وألزمه بتكاليف مختلفة ، ومنحه حرية الاختيار لنفسه ، ووعده على اختياره ثوابا أو عقابا ، فلو حمل على الحق حملا بالوحى أو بأمر آخر لخرج عن كونه انسانا نيط به التكليف ، ولأصبح أشبه شئ بالحيوان الذى يقاد بالزمام ، أو لعد فى زمرة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وحقيقة الانسان وطبيعة تكوينه وما أراده الله له فى حياته الدنيا من خلافته فى الأرض وعمارة الكون ، تأبى أن يكون كل أفراده أنبياء يوحى اليهم ، وسنة الله فى كونه تأبى ذلك أيضا والله العليم بخلقه ومصالح عباده يقول : « **ولو**

شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »(٤٦) ويقول : « **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين * الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »**(٤٧) .

وأما أنه صادر عن جهل بطبائع الناس واختلاف ما لديهم من صلاحية واستعداد للاضطلاع بجلائل الأمور وعظائمها ، فذلك لأن الله ـ سبحانه ـ لم يخلق الناس كلهم على نمط واحد من العقل ، والفهم ، والادراك ، وصفاء الروح ، والقدرة على تحمل الأعباء ، وانما خلقهم متفاوتين فى ذلك كله : فمنهم الغبى ومنهم الذكى ، ومنهم الضعيف ومنهم القوى ، ومنهم من صفت روحانيته ، ومنهم من غلبت عليه ماديته ، وما يصلح له القوى الذكى لا يصلح له الضعيف الغبى ، وما يمكن أن يدركه صاحب الشفافية الروحية لا يمكن أن يدركه صاحب الحجب المادية ، والله الذى قسم الحظوظ بين عباده ، اختار من بين بنى الانسان أفرادا صنعهم على عينه ، ورباهم على رعاية منه وعناية ، وأعدهم اعدادا خاصا ليكونوا مهبط وحيه وحملة رسالاته ، « **الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس »**(٤٨) . وقديما قال الكفار : « **لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله »**(٤٩) فرد الله عليهم بقوله : « **الله أعلم حيث يجعل رسالته »**(٥٠) .

نعم : الله أعلم بمن يصلح لهذه المهمة ومن لا يصلح ، فكيف يقال بعد ذلك : لو كان الوحى ممكنا لأوحى الله الى الناس كافة ؟ !! . .

● **الشبهة الثانية** : قالوا مشككين فى معجزات الأنبياء التى هى دلائل نبوتهم وآية صدقهم فيما يدعون من وحى السماء : ان المعجزات خروج على النظام الطبيعى العام ، وخرق لناموس الكون وقوانين الحياة ، وذلك ما لا يكون أبداً ، لأن الخروج عن ناموس الكون بتخلف الآثار عن مؤثراتها ، وتحقق النتائج فى الوجود بدون مقدماتها ـ كما هو الشأن فى المعجزات ـ معناه قطع لما بين جوانب الكائنات من ترابط وتماسك ، وذلك يؤدى الى الخلل والفساد الذى يتنافى مع الحكمة والمصلحة .

---

(٤٦) السجدة : ١٣
(٤٧) هود : ١١٨ ، ١١٩
(٤٨) الحج : ٧٥
(٤٩) الأنعام : ١٢٤
(٥٠) الانعام : ١٢٤

والجواب عن هذه الشبهة : هو : « ان المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا ، فان مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع ، كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات ، مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف » .

« فان قيل : ان ذلك لابد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعى ، قلنا : ان واضع الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ، ولكنا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده » .

« على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار ، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة وتابعا لأى سبب اذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك »[٥١] .

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدى فى هذا الصدد :

« قد ثبت أن النواميس الطبيعية ممكن تخلفها عن إحداث آثارها بنواميس أخرى أرقى منها ، وقد أثبت العلم الأوربى : أن معجزات الأنبياء كلها ممكنة »[٥٢] .

ويزيد ذلك ايضاحا فيقول :

« لا يوجد اليوم من يستطيع أن ينكر امكان حدوث المعجزات غير جماعة الماديين . . ولو كان هؤلاء الماديون يستعرضون أمامهم ما هدى اليه ألوف من العلماء الباحثين فى المباحث النفسية فى مشارق الأرض ومغاربها . . لرأوا أن كل هؤلاء قد هدوا بالتجارب التى أجروها على القوى النفسية الى نواميس أرقى من النواميس الحاكمة على المادة ، وفى استطاعتها فى شروط مخصوصة ابطال عمل تلك النواميس ، واحداث ظواهر جديدة خارقة للنظام الطبيعى المادى ، فأصبحت المعجزات فى نظر العالم من الممكنات ، وعلم انها تابعة ، لنواميس خاصة بها » .

ثم يستدرك الاستاذ محمد فريد وجدى على ذلك فيقول :

« أنا لا أقول ان ما يحصل فى جلسات استحضار الأرواح والتجارب النفسية . . من باب المعجزات ، ولكنى أقول : ان من يتأمل فى هذه الخوارق

---

(٥١) رسالة التوحيد ص ٦٥ ـ ٦٦

(٥٢) دائرة معارف وجدى فى مادة (دين) جـ ٤ ص ١٠٨ .

التى تتعطل معها نواميس الطبيعة ويتحقق من حدوثها ، يعرف أن هناك نواميس روحانية أرقى من النواميس المادية ، وانه لو كانت هذه الخوارق تظهر لمجرد وجود واسطة من عامة الناس ، فكيف لا يحدث أرقى من ذلك على يد نبى مرسل ، وصل من صفاء الروح الى حيث لا تناله الهمم ولا تحوم حوله الأفكار ؟(٥٣) .

واذا ثبت ان معجزات الأنبياء خارجة عما نعرفه من ناموس الكون العام ، وأنها خاضعة لناموس إلهى آخر أرقى منه وأعلى ، وعرفنا ان ظهور المعجزات على هذا النحو غير المألوف إنما يقصد منه تأييد الأنبياءفى دعوى النبوة ليحق الله الحق ويبطل الباطل ، عرفنا ان هذا هو مقتضى الحكمة وعين المصلحة .

● **الشبهة الثالثة** : قالوا : ان المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات العجيبة التى تفتقت عنها عقول بعض العلماء النابغين والعباقرة الملهمين ، فما نراه اليوم وقبل اليوم من عجائب الاختراع أمر مثير للدهشة والاستغراب ، وهو لا يقل فى ذلك عن المعجزات التى ظهرت على أيدى الرسل ، وذلك مما يستقيم معه فى منطق المحاجة والمعارضة بالمثل أن نقول : ان هؤلاء النابغين العباقرة أصحاب هذه المخترعات العجيبة أنبياء يوحى اليهم .

والجواب عن هذه الشبهة : أن المماثلة بين معجزات الأنبياء ومخترعات العباقرة ممنوعة ، ذلك لأن المعجزات ليست لها أسباب معروفة ولا هى مبنية على نظريات علمية مدروسة .

إن النبى تظهر على يده المعجزة وهو لا يعرف كيف وقعت ، ولا على أى ناموس من نواميس الكون نتجت ، بل ولم نسمع أن نبيا من الأنبياء نسب شيئا من ذلك لنفسه ، أو أرجعه الى نبوغ فيه ، أو رده الى معرفة منه وعلم عنده ، ومن هنا تجرد محمد ﷺ - كما تجرد غيره من الانبياء - من الحول والطول ، فقال لمن طلبوا منه معجزات بعينها : « **سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا** »(٥٤) وقال غيره من الانبياء لأقوامهم حين طالبوهم بالمعجزات :

« **إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله** »(٥٥) .

---

(٥٣) دائرة معارف وجدى فى مادة (عجز) جـ ٦ ص ٢٠٢ بتصرف يسير

(٥٤) الاسراء : ٩٣ (٥٥) ابراهيم : ١١

ومن هنا ـ أيضاً ـ نعلم سر فزع موسى حينما ألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ، اذ لو كان ما جاء به عن ممارسة ومدارسة لما عراه الخوف وتملكه الفزع ، حتى انه ليولى مدبرا لا يلوى على شيء ، ثم لا يسترد أمنه وطمأنينته إلا بعد أن يناديه الله عز وجل بقوله : « **يا موسى أقبل ولا تخف ، إنك من الآمنين** »(٥٦) .

أما المخترعات التى تفتقت ولا تزال تتفتق عنها عقول العباقرة من العلماء ، فذلك كله نتيجة دراسات علمية ، وأبحاث تجريبية ، ولم يدع عالم ولا عبقرى انه أتى بشيء معجز لا يقدر عليه غيره ، والشواهد ناطقة بأن العلم فى تقدم مطرد . . يأتى عالم بعجيبة علمية ، ويأتى عالم من بعده بما هو أعجب وأغرب . . ولا يزال العلماء يرقون فى سلم العلم حتى يأتى الأواخر بما لم تستطعه الأوائل ، لا لأنهم بلغوا حدّ الاعجاز ، بل لأنهم درسوا وبحثوا أكثر ممن سبقهم فكان لهم عليهم فضل فى مجال العلم والاختراع .

ثم ان معجزات الأنبياء كلها ليست بالأمر الذى يمكن لبشر ما مهما أوتى من العبقرية والنبوغ أن يأتى بمثله ، لأنها من صنع الله القادر على كل شيء ، فمثلا هل استطاع أى سحار عليم أن يقلب العصا وهى جماد أصم الى أفعى حقيقية تسعى على بطنها ، ثم تبتلع كل ما يعترضها من حبال وعصى كما فعل موسى عليه السلام ؟ .

وهل استطاع عباقرة الطب أن يبرئوا أكمهاً ولد أعمى ، أو يعيدوا الحياة لميت فارقت روحه جسده كما فعل عيسى عليه السلام ؟ .

وهل فى مقدور انسان ـ أى انسان كان ـ أن يضرب الحجر الأصم بعصاه فينشق عن ناقة عشراء كما وقع ذلك لصالح عليه السلام ؟(٥٧) .

وهل قدرت قريش ـ وهم فرسان البلاغة وأمراء البيان ـ أن يعارضوا القرآن الكريم ولو فى أقصر سورة منه ؟ . . لقد عجزوا ـ وغيرهم أعجز منهم ـ عن أن يأتوا بسورة من مثله ، وصدق الله العظيم « **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** »(٥٨) .

---

(٥٦) القصص : ٣١ .

(٥٧) هذا ما ذهب اليه جمهور المفسرين فى كون الناقة آية لصالح على صدق نبوته .

(٥٨) الاسراء : ٨٨

إن هذا العجز للبشرية كلها من معجزات الرسل مرده الى أن المعجزات مبنية على ناموس كونى خاص بها ، علمه الله وحده ، وجهله كل من سواه .

● **الشبهة الرابعة** : قالوا : ان المعجزات ليست الا من قبيل السحر والشعوذة ، فإنا نرى السحرة والمشعوذين يأتون من العجائب والغرائب بمثل ما جاء به الانبياء .

والجواب عن هذه الشبهة : أن السحر والشعوذة ، والنيرنجات[٥٩] ، وغيرها من أساليب التمويه والخداع ، فنون تدرس ، ولها قواعد معروفة ، وفيها كتب مؤلفة ، يمكن لكل انسان أن يدرسها ويبرع فيها كما برع غيره وأكثر ، وكل دارس لها يعرف عن يقين أنها بعيدة كل البعد عن مشابهة المعجزات ، وقد عرفنا آنفا أن المعجزات كلها حقائق عن الله ، لا تقوم على نظريات علمية ، ولا تتأتى لغير من خصه الله بها من الأنبياء .

وأكبر دليل على أن الدارس لفن السحر والحاذق فيه يعرف أن السحر لا يمكن أن يرقى بحال من الأحوال الى مرتبة المعجزة : ما حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون من اهتمامهم وحرصهم على التغلب بسحرهم على موسى عليه السلام ، طمعا فيما وعدهم به فرعون من جائزة ، ثم ايمانهم بموسى بعد ما بهرتهم المعجزة التى أبطل الله بها سحرهم رغم ما توعدهم به فرعون من عذاب ونكال ، يقول الله تعالى مصورا لنا صراع الحق والباطل وانتصار الحق فى النهاية : « . . **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وانكم اذاً لمن المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** »[٦٠] .

---

(٥٩) النيرنجات : جمع نيرنج وهو : أخذ كالسحر وليس به ـ انظر المعجم الوسيط

(٦٠) الشعراء : ٣٨ ـ ٥١

● **الشبهة الخامسة** : قالوا : لو كانت المعجزات دليل النبوة ، لكانت الكرامات التى تظهر على أيدى بعض الأولياء دليل نبوتهم أيضا ، لأن المعجزات والكرامات من واد واحد ، اذ الكل يجرى على غير المألوف الذى اعتاده الناس ، ويقع على غير ما عرف من نواميس الكون وطبائع الأشياء .

والجواب عن هذه الشبهة : اننا لا ننكر أن يكون لبعض أولياء الله ممن صفت نفوسهم ، وسمت روحانيتهم « مشارقة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع »[٦١] .

غير أن هناك فارقا كبيرا بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء :

١ ـ فمعجزات الأنبياء جاءت مقرونة بدعوى النبوة ، أما كرامات الأولياء فمع كونها لا تطاول معجزات الأنبياء وانما تقاربها وتأخذ منها بشبه ، ليست مقرونة بدعوى النبوة منهم ، وانما هى مقرونة بكمال التبعية لأنبيائهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

٢ ـ ومعجزات الأنبياء مبنية على الظهور والاعلان ، لأنها حجتهم على دعوى النبوة ، فلابد من اظهارها واعلانها صريحة جلية أمام المكذبين الجاحدين حتى يسلّموا لأنبيائهم ويدخلوا فى دينهم .

أما كرامات الأولياء ، فمبنية على الاخفاء والاسرار ، وما يظهر منها لا يكون عن قصد للولى أو ادعاء منه للكرامة ، فكثيرا ما تظهر الكرامة على يد ولى فيشعر بها من حوله دون أن يشعر هو بها ، ولو أن وليا ادعى لنفسه الكرامة على الله حتى انه ليطلب منه الأمر الخارق للعادة فيجاب اليه ، لخرج من عداد الأولياء ، ولعد فى زمرة الأفاكين الأدعياء .

٣ ـ والمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات مهما بدت هذه الخوارق غريبة ومستبعدة .

أما الكرامة ، فانها تختص ببعض الخوارق دون بعض ، فهى تتعلق ـ عادة ـ بالخوارق التى لا تبلغ حد المعجزة فى الغرابة والاستبعاد[٦٢] . . وبعد فما أبعد الانبياء والمرسلين عن ان يكونوا كاذبين مخادعين ، أو سحرة دجالين !! . . .

معاذ الله أن يكون أحد منهم كذلك ، فهم طراز من الخلق فريد ، بعثهم

---

(٦١) رسالة التوحيد ص ٨٨

(٦٢) انظر الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا ص ١٨٤ ـ ١٨٦

الله للعالمين هدى ورحمة ، فهدى بهم أمما كانت سادرة فى غيها ، وأعز بهم شعوبا كانت مغلوبة على أمرها ، وشفى بما جاءوا به من الحق قلوبا معتلّة ، وقوّم بما فى أيديهم من التشريع نظما مختلّة ، ومن المنكر فى البديهة - كما يقول الأستاذ الامام - أن يصدر الصحيح عن معتل،ويستقيم النظام بمختل[٦٣] .

* * *

(٦٣) رسالة التوحيد للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ص ٨٨